

ملاحع عصرية

كأنه لا يكفي ما ترتكبه السيارات من مجازر وما تأكله من آلاف الضحايا كل يوم حتى يضيفون إليها اختراعاً شيطانياً جديداً هو السيارة المفخخة، لتصبح السيارة أكثر أدوات العصر فتكاً وتنكيلاً بالإنسان وتحقق رقماً قياسياً في قوتها التخريبية يفوق قوة الأسلحة والمعدات الحربية المصنوعة للسحق والمحرق والدمار.

وبقدر ما قدمت السيارة من خدمات لإنسان هذا العصر وما أسهمت في حله من مشاكل، فقد أضافت إليه مشاكل جديدة لاحصر لها، ويكفي أن يدخل الواحد هنا بسيارته زحام المدينة لتنتقل في رأسه عشرات الكوابيس بدءاً من تقاديه التصادم بسيارة أخرى وتجنب الارتطام بالكتل البشرية التي تعبر الطريق إلى كابوس البحث عن مكان لوقوفها.

وبرغم الكوارث الناجمة عن هذا الاختراع، فقد أضحت السيارة محوراً أساسياً من المحاور التي تركز عليها حياتنا ورمزاً من رموز عصر السرعة والميكنة والتلوث.

إن أول شيء يحرص الواحد منا على اقتنائه هو هذه البهيمة الحديدية، وما أن تحقق لنفسك دخلاً يكفي بالكاد لشرائها حتى تترك كل شيء، وتهمل كل ما تحتاجه أمك من أدوية وما يطالبك به أصحاب دكاكين البقالة والحلاقة من ديون، وتذهب راكضاً إلى وكيل السيارات لدفع القسط الأول من ثمنها، وتقف أمام الوكالة رافعاً رأسك إلى السماء، مائلاً رثتيك بالهواء، شاعراً بالفخر والهناء وكأنك حققت أعظم إنجاز في حياتك، لقد أصبحت لديك الآن سيارة تعيد إليك كرامتك المسفوحة على أبواب الحافلات وأرصفتها القطارات ومواقف سيارات الأجرة، وصار عليك أن

تتعامل مع الناس بأسلوب جديد يليق بإنسان دفع القسط الأول من ثمن السيارة، ولكن هذا الزهو سرعان ما يتبدد ويتبخر في الهواء عندما تكتشف أن حياتك قد تحولت إلى ارتهان كامل لهذه السيارة. فأنت تشقى وتتعب وتأتى بنقود لاستطيع استخدامها أو الاستفادة منها لأنها سوف تذهب كاملة لسداد أقساط السيارة وشراء وقودها وإصلاح ما يلحقها من عطب والإنفاق على ما تجلبه إليك من ضرائب ومخالفات وتأمينات. وإذا كنت سعيد الحظ ونجوت من حادث أو مشاجرة تؤدي بك إلى السجن أو المستشفى، فسوف تكتشف أن مسيرة الإنفاق لاتنتهى ولاتتوقف، لقد أكملت سداد الأقساط ولكن مصاريف السيارة تزداد بسبب القدم والاستهلاك، ومشاورير زياراتها إلى ورش التصليح تتكاثر يوماً بعد يوم إلى أن تصل إلى الحد الذى يوجب رميها وشراء سيارة أخرى بدلاً منها لتعود من جديد إلى الدوران فى ذات الحلقة المفرغة التى لاتنتهى.

حتى إذا ما تقدم بك العمر كثيراً وازداد دخلك قليلاً بحيث صار بإمكانك أن تجد فائضاً تنفقه على شراء المجلات الطبية التى صرت شغوفاً بالاطلاع عليها بعد أن ابتليت بالعلل والأمراض التى كانت السيارة من أهم أسبابها، ظهر لك طفل بلغ سن الفطام وجاء يطلب هو الآخر سيارة يمارى بها غيره من أطفال، ولأنه مازال لم يتعلم النطق فأنت تظنه يريد لعبة يلعب بها، وما أن تشتريها له حتى يرمى بها فى وجهك ساخراً، ضاحكاً من غفلتك وغشامتك لأنك لاتعرف أنهم أباحوا رخص القيادة لكل من بلغ سن الفطام، وتزداد دهشتك عندما تعرف أنه يفقه فى أنواع السيارات أكثر منك لأنه كان يتلقى فى بطن أمه دروساً خصوصية عن أشكالها وموديلاتها وأنه أحضر كراساً من كراريس الدعاية التى تنشرها الشركات ليشير عليك بالسيارة التى يريدتها محدداً طرازها ولونها وقوة محركها، مشروطاً بأن تأتى

كاملة لا ينقصها التكيف ولا راديو الهامى فام ولا السقف المتحرك. وتنظ أن سقف الكون هو الذى يتحرك الآن وأن القيامة سوف تقوم قريباً وأن عطباً قد أصاب الدنيا حتى جعل طفلاً فى سنه يطلب سيارة قبل أن يتعلم النطق. ثم تزول دهشتك عندما تخرج إلى الشارع وتكتشف أن أطفالاً مازالوا يرتدون «حفاظاتهم» ويضعون المراضع فى أفواههم يقودون السيارات من كل شكل ولون ويملأون الدنيا زحاماً وضجيجاً.



بمثل ما تزحف العمارات على القرى لتعيد تشكيلها وتمحو خصوصيتها وتمنحها طابعاً يتفق ويتشابه مع قرى العالم الأخرى، فهى تزحف أيضاً على الأحياء السكنية القديمة المكونة من بيوت أرضية داخل المدن لكى تقضى على مالديها من تميز وما تضمه من مساحات خضراء، ولكى تصبح هذه الصناديق الإسمنتية المهولة إحدى أهم علامات هذا الزمان، وتأتى «الشقة» التى صارت تعنى فى أغلب لغات العالم معادلاً للبيت، لتقدم لعالمنا نسقاً دولياً للبيت العصرى، وسواء كنت فى الشرق أو الغرب، فى أقصى شمال الكرة الأرضية أو جنوبها، فإن السكن الغالب لبنى البشر أصبح هذه الشقة التى تتشابه فى شكلها ومحتوياتها وهندستها مع أية شقة أخرى، غرفة استقبال تضم صالوناً وتلفازاً وأدوات إكسسوار أخرى، أوان أو لوحات أو كتب أو أطباق، فهذه الأدوات لا تختلف من شقة إلى أخرى إلا بقدر اختلاف حالات البسر أو العسر، وفى مكان ما طاولة للأكل صارت توحد أسلوبنا فى تناول الطعام، وبجوارها مطبخ مجهز بذات التجهيزات التى نجدها فى كل قرية أو مدينة، وثلاجة تحتوى على طعام معلب يتشارك جميع أهل الأرض فى استهلاكه. ويأتى الليل فنهجع إلى غرف نوم تكاد تكون متشابهة فى كل بلاد الدنيا، وبجوار رؤوسنا مذياع ينقل لنا حدثاً دولياً

نشترك جميعاً فى سماعه، ويكون موضوعاً فى صباح اليوم التالى لتعليقاتنا وأحاديثنا مع الأصدقاء، ويأتى الصباح فنرتدى ملابس تكاد تكون متشابهة ونضع على وجوهنا ماء الكولونيا الذى تصدره باريس إلى كل الشعوب، وننظر إلى ذات الساعة السويسرية التى تزين معاصم ملايين البشر فى أصقاع الأرض بمثل ما تزين معصمنا، ونركب ونحن فى قرية إفريقية سيارة هى ذاتها التى يركبها مواطن فى الهند أو اليابان أو برمودا، وغر بمحطة وقود هى ذاتها التى يمر بها كل مواطن آخر فى تلك البلاد، وتبادل مع عاملها ذات الكلمات التى يتبادلها مع ذلك المواطن، ونذهب إلى مكتبتنا فنستخدم مصعداً هو ذاته الذى نستخدمه كل العمائر فى عالمنا، ونجلس إلى مكتب فوقه جهاز الهاتف الموصول بكل الهواتف فى الكرة الأرضية، ويجوارنا فى الغرفة جهاز التلكس تدق عليه فتاة فى طوكيو فنسمع دقائق أصابعها فوقه ونحن فى مكتبتنا بالقرن الإفريقى، ونذهب فى تعاملنا اليومى إلى مكتب أو مصرف أو سفارة أو وكالة أو عيادة فنجدها تستعمل أسلوباً واحداً فى كل بلاد الدنيا وتعتمد ذات النماذج وتستخدم ذات المراجع والجداول وتتبع نظاماً موحداً فى تعاملها مع زبانتها فى كل بلاد الدنيا.

ونكتشف أثناء ذلك كله أن حدوداً كثيرة قد تهاوت بين سكان العالم بفضل مكتسبات العصر وإنجازاته الحديثة، وأن البشر صاروا يملكون من الروابط والأواصر ما يجعلهم أشبه بسكان قرية واحدة، ونساءل إذا ما كان هذا التوافق فى أنماط الحياة التى نحياها وهذا التطابق فى ما نشاهده ونسمعه ونقرأه ونستعمله ونرتديه وهذا التشابه فى أساليب العمل والعلم والسفر والنوم واليقظة سيجتج بالضرورة مناخاً جديداً يوحد رؤيتنا لمشاكل العالم ويؤكد انتماءنا للأسرة البشرية ويربى فى نفوسنا ذلك المواطن العالمى الذى يؤمن بأن العالم قريته.

هل سيواكب هذا التطور فى التقنيات وأساليب المعيشة تطوراً فى المفاهيم والأفكار والمعتقدات والسلوك، وهل نستطيع بفضل هذه الآفاق الجديدة التى أتاحها لنا العصر أن نتجاوز ترسيبات الماضى الذى يحفل بعوامل التفرقة والانقسام، ونصنع متحدين متكاتفين عالمياً ينعم بالرخاء والأمن والسلام؟

هل سيحدث ذلك، أم ستظل هذه الأفكار، برغم كل هذا التقارب والتوافق بين البشر، مجرد أحلام تنتقل من جيل إلى جيل دون أن يتاح لها فرصة التحول إلى وقائع وحقائق؟

\*\*\*

إنه رجل ناجح بمقاييس النجاح هذه الأيام. يرتدى ألوانه ويمضى مختالاً بين الناس، متألقاً، متألقاً، مزهواً بهذا المركز الوظيفى الخطير الذى يحتله، سعيداً بهذه الحفاوة التى يقابلها بها الحجاب والسعاة على أبواب إدارته، والتحية التى يرفه بها أصحاب الحاجات فى الطريق من سيارته إلى مكتبه. يرتاد المنتديات، ويقابل الصحفيين، ويقف خطيباً فوق المنابر، فيستعير صوتاً غير صوته، وحنجرة ليست حنجرته، ويتكلم بلسان غير لسانه، ويقول كلاماً مرصوفاً جميلاً لكنه ليس كلامه، وإنما كلام الوظيفة، ورأى المؤسسة التى يخدمها، ورأى رئيسة فى العمل الذى أهدها هذه الوظيفة.

ولكن

أين تنتهى المؤسسة ويبدأ الإنسان؟

أين تنتهى الأتعة وتبدأ القناعات؟

أين ينتهى كلام رئيسه فى العمل ويبدأ كلامه هو؟

أين ينتهى كلام الناطق الرسمى ويبدأ كلام الناطق الشخصى؟

لقد اختفت من حياته الحدود بين كل هذه الأشياء، لقد استخدم الرجل كل مهاراته لكي يلعب دوره جيداً، واندماج اندماجاً كاملاً في هذه الشخصية التي يمثلها حتى نسى صوته ووجهه ولسانه.  
نسى قلبه وعقله وضميره.

وأذاب شخصيته في شخصية الوظيفة فلم يعد لها وجود أو حضور.  
لقد كانت له آراء وأفكار وأشياء يؤمن بها لا تتفق جميعها مع ما تقوله الجريدة الرسمية.

ولكن هذه الأشياء كان يقولها عندما كان يجلس على مقاهى الرصيف مع بسطاء الناس، وعندما انتقل من المقهى إلى هذا المركز الوظيفي، اجتهد الرجل في طمس وإخفاء كل تلك الآراء والأفكار التي لم تعد تخدم أغراضه، أهال عليها التراب وغطاها باليابس من الأعشاب كمن يغطي آثار جريمة يخشى أن يكتشفها الناس.

لبس أرديته وألوانه الجديدة وإذا تغيرت السياسة تغير معها وإذا سمع تعليقاً في الإذاعة يخالف الرأي الذي قاله منذ دقيقة واحدة أسرع إلى قول كلام جديد يتفق مع تعليق الإذاعة.

يحمل في جيبه مجموعة من الشعارات والعبارات الجاهزة التي اقتبسها من افتتاحيات الصحيفة الرسمية، والتزم بها، لا يجيد عنها ولا يضيف إليها ولا ينتقص منها، فهو مثال الوفاء والولاء والطاعة والإخلاص، لا يؤمن بالاجتهاد أو الخروج على النص أو ارتجال الكلمات التي لم يقلها المؤلف.

والسؤال الذي أحب أن أقف عنده اليوم هو إلى أي مدى يستطيع أي إنسان في الكون أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل ويمضى متكرراً لذاته ماسخاً شخصيته الأصلية وناقلاً فوق قلبه وضميره ووجدانه ولسانه أفكاراً وآراء تتناقض مع آرائه وأفكاره وشخصية أخرى بديلة لشخصيته الحقيقية.

وإذا كان بإمكان هذا الإنسان أن يكذب على الآخرين إلى مالا نهاية،  
فإلى أى مدى يستطيع أن يكذب على نفسه، أو يمتنع عن الاستماع إلى أى  
نداء داخلى يتصاعد من عقله وقلبه وجدانه؟  
إنه رجل ناجح بمقاييس النجاح هذه الأيام.  
يرتدى ألوانه ويمضى مختالاً بين الناس، متألّقاً، متأنّقاً، مزهواً بهذا  
المركز الوظيفى الخطير الذى يحتله، سعيداً بهذه الحفاوة التى يقابلها بها  
الحجاب والسعاة على أبواب مكتبه.  
ولكن

هل يستحق نجاحاً كهذا النجاح ثمناً كهذا الثمن؟

\*\*\*

سوف يكون غريباً أن نجد بائعاً فى السوق يرفع عقيرته داعياً الناس  
لشراء التفاح الذى يبيعه ثم نكتشف عندما نذهب إليه أن ما يبيعه هو  
البصل. وإذا وجدنا مثل هذا البائع فسوف نعتبره رجلاً عيباً أو مجنوناً لأنه  
يقوم بالدعاية لبضاعة لا يملكها ويبيع بضاعة يخجل من المناداة عليها.  
ولكن ماذا نعتبر أولئك الناس الذين يدخلون أسواق الفكر والثقافة  
والسياسة ويرفعون شعارات لا يطبقونها وإنما يطبقون عكسها وينادون على  
بضاعة لا يبيعونها وإنما يبيعون شيئاً مخالفاً لها. إننى لا أرى فرقاً كبيراً بينهم  
وبين ذلك البائع الذى ظن أنه بمناداته على التفاح سوف يضمن جمهوراً  
لشراء البصل، الفرق الوحيد بينهم وبينه، أن بائع الخضار أو الفاكهة سوف  
يكشف الناس أمره ويمتنعون عن شراء بضاعته، بينما يأخذ تجار الشعارات  
وقتاً قبل أن يكشف الناس كذبهم وغشهم.  
ولاشك أن تجار الشعارات أكثر مكرراً ودهاء من صاحب عربة الخضار،  
فهم عندما يبيعون البصل باسم التفاح يلجأون إلى كل الحيل والأساليب

لإخفاء غشهم، إنهم يعبثون البصل فى صناديق رسم فوقها التفاح ويتفتنون فى وضع الأغلفة التى تخبئ شكله ورائحته عندما يبيعونه إلينا بحيث لانكتشف أمره إلا بعد أن نكون قد اشتريناه منهم ودفعنا لهم الثمن ووقعنا ضحية غشهم واحتيالهم. والأغرب من كل هذا أنه مع اكتشاف الناس لغشهم وخداعهم يأتون مرة أخرى إلى السوق ويقفون فى ذات المكان ويضعون أمامهم البصل الذين يخبثونه فى صناديق التفاح ويرفعون عقيرتهم بمناداة من يتغنى شراءه. معتمدين على أن هناك دائماً إنساناً غافلاً يأتى إلى السوق لأول مرة لا يدري شيئاً عن لعبتهم وسوف ينطلى عليه خداعهم. ومهما كان عدد الناس الذين كشفوا أمرهم كبيراً، فإن هناك دائماً زبوناً جديداً لبضائعهم، تساعدهم فى ذلك عوامل كثيرة من أهمها أن هذه الأسواق لائحكمها القوانين التى تعاقب الخادعين وتحمى المخدوعين فانتشر فيها الدجل والكذب والغش والتزوير دون حسيب أو رقيب. وما يجب أن يطالب به ضحايا تجار الشعارات هو أن تطبق القوانين التى تحكم أسواق الفاكهة والخضار على أسواق الفكر والثقافة والسياسة بحيث يمنع القانون بائع البصل أن يسميه تفاحاً ويمنع بائع التفاح أن يسميه بصلاً، وسوف لن يتضرر كثيراً هؤلاء التجار، فنحن بقدر حاجتنا إلى التفاح نحتاج أيضاً إلى البصل الذى سوف نشتره منهم ولكن بثمان أرخص كثيراً من ذلك الثمن الذى طالبونا بدفعه عندما سموه تفاحاً. مع الاعتذار الشديد لكل تجار الخضار.

\*\*\*

غالباً ما تعطينا المدن الكبيرة انطباعاً خاطئاً عن الخصائص والشعوب والأوطان التى تنتمى إليها. بدليل ما أن نتقل خارج هذه المدن ونلتقى بأبناء ذلك الشعب فى القرى والأرياف والمدن الداخلية الصغيرة حتى نخرج

بانطباع يتناقض مع الانطباع الذى أعطته لنا المدن الكبيرة.  
ونكتشف أن لندن مثلاً لاتصلح أن تكون معياراً للحكم على سلوك  
وخصائص وطباع أبناء الجزر البريطانية، وكذلك الأمر مع باريس أو روما  
أو موسكو أو غيرها من مدن الدنيا. ويرغم أن هذه العواصم العالمية تخنوى  
أخلاقاً من البشر الذين يأتون إليها من كل بقاع الأرض ويشكلون فى  
بعض مناطقها نسبة تفوق نسبة أهل البلاد الأصليين، فلا أعتقد أن هذا هو  
السبب فى تزويدنا بالانطباعات الخاطئة، لأن انطباعاً مثل هذا يمكن أن  
نخرج به حتى ونحن نزور مدينة داخلية كبيرة تزدهم بسكانها من أهل  
البلاد ولا علاقة لها بالسياحة أو التجارة الخارجية أو الجاليات الأجنبية. إن  
القضية أولاً وأخيراً هى قضية هذا الزحام الذى صار يفرض على سلوك  
الناس أخلاقيات أخرى يتعاملون بها ليست أخلاقياتهم وإنما أخلاقيات  
صنعها العصر الحديث وأعطاهم طابعاً عاماً تكاد تشترك فيه كل مراكز  
الكثافة السكانية فى الدنيا. يشتد التنافس بين الناس وتقوى وتيرة الصراع،  
ويتشتر أسلوب المفاضة والمنافع المتبادلة، تضاء مصلحة لك بقضاء مصلحة  
منك، أشتري لك كأساً من الليمون لتعزمنى على قدح من القهوة، كل شىء  
له ثمن، وكل شىء له مقابل، حتى الوقت له ثمنه فى حمى هذا التسابق  
والفوز بمكان أكثر تقدماً بين الصفوف، إن هذا الذى يجرى ليلحق بالقطار  
قد لا يستطيع أن يمنحك ما تريده من وقت وأنت تسأل عن موقع العيادة  
التي تبحث عنها، حتى لو رآك تنزف دماً فهو لا يستطيع شيئاً أكثر من أن  
يشير عليك باكتراء سيارة أجرة تقلك إلى ذلك المكان، وأن عليك أن  
تشتري مشورة كهذه بالمال، وإذا أردت دليلاً يقودك فى جولتك فهو أيضاً  
موجود يريد ثمناً وحتى العيادة التي تذهب إليها لإسعافك تريد مالاً هى  
الأخرى، وبالمال سوف تجد من يؤانسك ويرافقك ويقضى معك سهرتك

وهو ينظر إلى ساعته لأن لكل دقيقة ثمنها، أما بغير ذلك فإنه سيكون متعذراً على سائح مثلك إنشاء العلاقات أو الالتقاء بالمناطق الدافئة في قلوب الناس من رجال ونساء، لأنها مناطق بعيدة وصعبة المنال بعكس ما يحدث في القرى وخارج هذه المدن الكبيرة حيث تختفى هذه الضغوط والالتزامات التي يفرضها الزحام وحيث لا يكتفى الإنسان الذي تسأله عن مكان ما بالإشارة إلى الطريق الذي يقوده إليه وإنما يرافقك بنفسه إلى ذلك المكان وقد تكون مناسبة لإنشاء صداقة يظهر لك خلالها شيئاً من كرم أهل تلك القرى واهتمامهم بالغرباء.

الزحام إذن هو العلة وكلما ازداد الزحام كلما تناقصت مساحة المودة والتراحم بين الناس، ولسنا بحاجة إلى أن نذهب إلى عواصم العالم الكبيرة حتى نصل إلى هذه النتيجة، فهي ماثلة أمامنا في المدن التي نقيم بها أو ننتمى إليها، فالفرق يبقى شاسعاً بين أسلوب التعامل الذي نلقاه لدى أهلنا في القرى والأرياف وما ينشأ هناك من تراحم وتواصل بين الناس، وبين ما يسود علاقاتنا في المدن من شد وجذب وتوتر وأزمات، وإذا كنا نسمع من أهلنا عن تلك الحكايات التي تتحدث عن آباء لنا وجدود كانوا لا يتناولون طعام العشاء إلا إذا ذهبوا إلى الجامع يحشون عن غريب يستضيفونه على موائدهم، فقد بات مثل هذا الحديث في مدننا العصرية ضرباً من الخرافات والأساطير، إنه الزحام مرة أخرى يصنع أخلاقاً جديدة لاعلاقة لها بما عرفناه من تقاليد الكرم والضيافة والاحتراف بالغرباء.

ولأن العالم يزداد مع الأيام ازدحاماً فإن أخلاقيات التوادد والتراحم سوف تزداد مع الأيام ندرة وابتعاداً.



في حين تنشئ كل فئات المجتمع الروابط والاتحادات والتسابات التي

تنظم صفوفها وتدافع عن حقوقها وتحقق لها المكتسبات عاماً بعد عام، فإن هناك فئة من البشر موجودة بيننا منذ أن وجد البناء والعمران دون أن تفلح في إنشاء نقابة أو رابطة تحقق أدنى مستوى من التنظيم لأصحابها، فبقيت فريسة سهلة للابتزاز والاستغلال، هي فئة الباحثين عن سكن.

تكبر المدن وتزداد اتساعاً وازدحاماً بالسكان وتفتن شركات البناء في إشادة العمائر والبنائيات التي تطاول السحاب، ولكن فئة الباحثين عن سكن لا تتأثر بكل هذا التقدم والتعمير، فهي تظل موجودة على الدوام، لانتفاص وإنما تزداد، يطوف أهلها أحياء المدن الكبيرة ويتسكعون عبر شوارعها الخلفية باحثين عن أية نافذة مغلقة فلعلها تمثل أملاً في بيت يسكنونه، ويطرصدون للبنائيات التي في طور الإنشاء عليهم يجدون مقاولاً يقبل منهم عربوناً لشقة يكترونها، وتنشأ آلاف المكاتب والشركات التي تتاجر بأزمتهن وتحقق الأرباح الطائلة من وراء معاناتهم ومحتهم، دون أن تجد مشكلتهم حلاً نهائياً، ولن تجد، فهي ستبقى ما بقيت في الدنيا أبنية وعمارات، وستبقى هذه الفئة دائمة التجدد والتغيير ما أن يخرج منها إنسان وينضم إلى دنيا الساكنين الهائنين حتى يأتي إنسان آخر يحمل قلقه ومعاناته ويعلق هو الآخر أبصاره بالنوافذ والشرفات باحثاً عن بيت يأويه.

وسر إشفاقي على هذه الفئة وغيرتى على حقوقها الضائعة، أننى أحد المنتمين الدائمين إليها، وما أن أخرج منها بضعة أشهر أو أعوام حتى أعود إليها مرة أخرى، وكأنها صارت إدماناً لا أبرأ منه، ولذلك فقد نبتت في ذهني فكرة أن ننشئ جمعية أو نقابة تنظم صفوفنا وتولى الدفاع عن حقوقنا وتناضل في سبيل توفير شروط أفضل ندخل بها الصراع مع أصحاب العقارات والأمالك وتجار المحن والأزمات من أصحاب الوكالات والدكاكين، ترفع عنا الضيم، وتحمى أهل فنتنا من الاستغلال والابتزاز.

يدفعنى إلى هذا التفكير إدراكى بأهمية هذه الفئة وضخامة أعدادها وتنوع المهارات والكفاءات من المتتمين إليها، ومن العار أن تبقى مشتتة الجهود برغم هذه الإمكانيات الهائلة التى يملكها أهلها والتى لو توحدت لقلبت الموازين فى عالم المضاربات العقارية، ولأرعبت الشركات التى تتاجر بهذه الأزمة ولجعلت الباحثين عن سكن قوة كبرى لن تكفى بالبحث عن حلول لأزمتها السكنية وإنما ستحقق حضورها الفاعل فى مجالات الفكر والاقتصاد والسياسة، بحيث تسخر العلماء والأدباء والشعراء لخدمة أهدافها وتأليف الكتب والبحوث عن تاريخها والقصائد والملاحم والمسرحيات التى تشيد بنضال أهلها وترغم الاقتصاديين على تغيير أساليبهم الاقتصادية بما يتفق مع توجهات أبناء هذه الفئة، وتجعل السياسيين يذعنون لتعليماتها ويمثلون لأوامرها لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك أسقطتهم وانتخب حكاماً آخرين يطيعونها، بفضل ما توفر لها من إمكانيات وما ينضوى تحت لوائها من بشر. وستكون جمعية عالمية لها فرع فى كل مدينة من مدن الدنيا، قادرة على أن تؤدى دوراً فى السياسة الدولية وخدمة السلام العالمى والوفاق بين الشعوب لما يربط عناصرها من وشائج تتجاوز الفوارق العرقية والعقائدية لتجعلهم أشبه بأمة واحدة يوحدتها البحث عن سكن.

ولكن مشكلة هذه الجمعية العالمية أن وجودها سيكون مرهوناً بوجود أزمته واستمرارها، لأنها ما أن تصبح قوة قادرة على فرض حل لمشاكلها وتوفير مساكن لأبناء فئتها حتى يبدأ وجودها فى الاختفاء. وهى محنة حقيقية تجعلنى أتردد كثيراً قبل أن أطلب رفاقى الباحثين عن سكن بإنشاء هذه الجمعية التى سيكون نجاحها سبباً فى اختفائها وموتها.



أعرف أناساً ينتسبون لأوساط تجارية لايطبقون البقاء فى بلدان إقامتهم

أكثر من أسبوع أو أسبوعين ولا يعودون من رحلة حتى يبدأوا السعى للحصول على رحلة جديدة موفدين من مؤسساتهم التجارية أو مدعويين من قبل هذه المعارض الدولية التي تقام دورياً في كل مدن العالم. فهم شغوفون بالسفر والترحال إلى حد أنهم يفضلون قضاء أعمارهم متنقلين بين موانئ العالم الجوية لايحطون فوق الأرض حتى يعاودوا الطيران مرة أخرى.

وفي الحقيقة أن ما يفعلونه ليس سفرأ بمعنى السفر الذي يتيح لنا رؤية العالم والالتقاء بتجارب البشر واكتساب الخبرات والمعارف وإرضاء فضولنا لمعرفة الحياة التي يعيشها الناس في أركان الدنيا الأربعة، والانتفاع بما نسمع ونشاهد ونقرأ ونحن نجوب هذه البلاد البعيدة، لأن هؤلاء المسافرين أبداً لا يشاهدون شيئاً ولا ينتفعون بشيء إذ إنهم لا يقيمون في المكان الذي يذهبون إليه ولا يطبقون البقاء فيه لأكثر من يوم أو بعض يوم ويبددون أعمارهم أمام نقاط التفتيش وحرس الجمارك، إنه ليس ذلك السفر الذي يكون وسيلة لتحقيق غاية وإرضاء طموح وإطفاء شوق عارم للمعرفة والتجربة والمغامرة وإنما سفر لوجه السفر، سفر لا غاية له ولا هدف، فقد تحول بحد ذاته إلى هدف وغاية، وترى الواحد منهم يسعى للحصول على وظيفة تقتضى كثرة السفر، وإذا كان العمل يحتاج إلى رحلة كل شهرين أو ثلاثة أشهر فهو يتفنن في اختلاق المناسبات لجعل السفر مرة كل أسبوع إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وما أن يصل إلى محطته الأخيرة حتى يبدأ بمباشرة إجراءات العودة وتكون الحصيلة أن ما يقضيه داخل المطارات وعلى مقاعد الطائرات أضعاف الوقت الذي يقضيه في البلاد التي يسافر إليها، ومع ذلك فهو سعيد بهذا الشقاء ويبدل أقصى مساعيه للمحافظة عليه فقد تحول هذا السفر إلى هوس يسيطر على عقله وقلبه ولا يتغنى منه فكاكاً، وإذا كان

السفر وسيلة لاكتشاف الذات عندما نلتقي بصورتنا معكوسة في مرايا الآخرين الذين يختلفون عنا طباعاً ومعيشةً وفهماً للحياة، فهذا السفر غالباً ما يكون هروباً من الذات، وهذا ما يمكن أن نتكهن به كتفسير لهذا السلوك.

إن النفس البشرية أكثر تعقيداً من أن نحيط بكل أسرارها أو نفهم كل دوافعها، والناس يختلفون من ناحية التكوين النفسى باختلاف ملامحهم وبصمات أصابعهم، ولقد اخترع الإنسان الذى لا يقوى على مواجهة نفسه عشرات الوسائل للهروب من هذه المواجهة، ولعل هذا النوع من السفر أكثرها فاعلية وأبلغها أثراً فى تحقيق هذه الغاية، ولا أدرى لماذا نهرب من مواجهة أنفسنا وكأن هناك أشباحاً بداخلنا تنتظر أى سائحة للانقضاض علينا، فكلنا بطريقة ما نخشى هذه المواجهة مع الذات، ونسعى لتأجيلها ما أمكننا ذلك.

إن بعضنا ممن تحول الأمر بالنسبة لهم إلى حالة مرضية، يهربون من مواجهة الذات إلى إدمان عادة سيئة ومدمرة كالقمار أو الخمر أو المخدرات، وبعضنا ممن أرادوا الاحتفاظ بروؤوسهم سليمة يهربون منها بالاستغراق فى العمل، وتراهم يفتعلون أعمالاً ينشغلون بها عن قضاء الإجازة أو عطلة الأسبوع، وبعضنا الآخر ممن هم أكثر ذكاءً يهربون منها بالاستغراق فى السفر، وإذا كانت أغلب المهن تتيح فرصة للهروب من مواجهة الذات فإن مهنة الكتابة تفرض على صاحبها إذا أراد أن يكون صادقاً وأميناً مع مهنة القلم، مواجهة دائمة مع الذات ومراجعة يومية لأفكاره وقناعاته، ولعل السبب فى كثرة الأمراض النفسية والعصبية التى تصيب الكتاب والمفكرين ترجع إلى هذه المواجهة القاسية والدائمة مع الذات.

\*\*\*

هناك دائماً أصل وصورة لكل إنسان. أصل يعرفه بعض من تربطهم به صلات وعلاقات حميمة وصورة هي التي يتداولها عنه الناس أو يسعى هو لإشاعتها فيما بينهم. وقد يبلغ هذا الإنسان درجة من الصدق في تعامله مع الآخرين تجعل الصورة متطابقة مع الأصل، وقد يسعى بنفسه إلا أن يعطى صورة مخالفة ومناقضة لصورته الأصلية.

وإذا كان هذا القول يصدق مع الأشخاص العاديين فهو يصدق أكثر مع الشخصيات العامة من السياسيين وقادة الرأي. فهؤلاء الأشخاص العامون الذين لا يراهم الناس إلا خطباء في المحافل العامة أو متحدثين عبر الإذاعات والمقابلات الصحفية ولا يعرفونهم إلا من خلال ما تقوله عنهم الوسائط الإعلامية أو تذكره الكتب التي تناول حياتهم وأفكارهم، هؤلاء الأشخاص تنشأ لهم في أذهان الناس صورة تقترب أو تبعد عن الأصل ولكنها غالباً ما تحتفظ بدرجة من الاختلاف عنه.

وفي تعامل الناس مع هؤلاء الأشخاص العائمين يميلون عادة إلى وضعهم في قوالب جاهزة فيسمون هذا رجعيًا والآخر تقدميًا ويسمونه يساريًا والآخر يمينيًا ويضعونه في صف الصقور أو يضعونه في صف الحمام ويلبسونهم جميعاً أردية من صنعهم ويرسمون لهم صورة ثابتة دون اعتبار لما يحدث في النفس البشرية من تفاعلات وما يطرأ على هذا الإنسان من حالات تتنوع فيها مواقفه بتنوع الظروف والملابسات وما يطرأ على أفكاره من تطور أو تغيير ودون اعتبار لمدى اختلافه عن بقية من يصنفونه معهم، من يساريين أو يمينيين، بل كثيراً ما نرى الناس يرسمون أكثر من صورة للشخص الواحد ففي حين يعتبره قسم من الرأي العام مثلاً للنزاهة والإخلاص والاجتهاد والوطنية إلى آخر ما في القاموس من كلمات تدل على الخير والصالح نجده في نظر قسم آخر مثلاً لكل الخصال

المناقضة للخصال التي أضفها عليه القسم الأول.

ويزودنا التاريخ بشواهد كثيرة عن درجة التناقض بين الأصل والصورة في بعض الأحيان، فما أكثر الأشخاص القيايين ممن أدينوا في فترة تاريخية ما، باعتبارهم مثالا للسقوط والخيانة وتناقل الناس صورة بشعة عنهم فاستحقوا غضب معاصريهم وسخطهم ثم إذا بهم في مرحلة أخرى يراون من التهمة التي أسندت إليهم ويعاد لهم اعتبارهم وتظهر لهم صورة جديدة نبيلة تخالف الصورة السابقة.

وشخصيات قيادية أخرى عقدت لها ألوية المجد والبطولة ثم اتضح بعد مرور الأعوام أنها ارتكبت من المخاى ما يورثها الخزي والعار.

وإذا كان بعض هؤلاء الأشخاص العامين يتحملون مسئولية الصورة المخالفة لحقيقتهم التي يتلقاها الناس لأنهم يماثلون أحيانا الراى العام ويسعون لشراء الشهرة الشعبية لتحقيق الفوز والنجاح حتى لو أدى الأمر إلى ارتداء الأتعة والظهور بمظهر مخالف لشخصيتهم إرضاء للآخرين، فإن هناك حالات أخرى يتطوع فيها الناس أنفسهم لإضفاء صفات خارقة على شخص ما كما حدث مع «نهر» عندما وجد بعض الأوساط الشعبية الهندوسية ترى فيه تجسيدا لرموز ومعان دينية مقدسة وتسعى لتأليهه، فحارب هذا الاتجاه حتى قضى عليه.

وهذا يحدث في العلاقات الخاصة أيضا عندما نجد الحبيب يضى وهو في ذروة الحب أوصافا على حبيبه تمنعه من أن يراها على حقيقتها إلا بعد انتهاء هذه الفورة العاطفية الجامحة.

وإذا انتقلنا من الشخصيات العامة والخاصة إلى الامم والشعوب فسنجد أننا كثيرا ما نلتقى بصورة يتداولها الناس عن شعب ما تختلف عن صورته الحقيقية عندما نزوره في بلاده ونلتقى بأهله ونتعرف عليه عن

قرب. ولا أجد في هذا السبيل مثلاً أكثر وضوحاً من الصورة التي تسعى أجهزة الإعلام الغربية والدائرة في فلك الصهيونية لإصاقها بالمواطن العربي. فقد دأبت هذه الأوساط الإعلامية من صحف وإذاعات مرئية وأفلام تنتجها الشركات الصهيونية على تقديم العربي في صورة مشوهة ممسوخة وغرسها في أذهان الشعوب الأخرى. ويتحول العربي الذي كان على مدى مئات السنين وحتى عصرنا الحاضر ضحية لعنف الدول الاستعمارية وإرهابها وهمجيتها ثم ربيبتها الصهيونية إلى الرجل الإرهابي، المتوحش، المتخلف، الذي لا يؤمن إلا بالعنف ولا يعرف إلا الرغبة في تدمير العالم. صورة مناقضة لصورة الإنسان العربي ببساطته وأصالته وحضارته ستجد على مدى الأيام من يصدقها إذا لم نستنفر كل مؤسساتنا السياسية والفكرية والثقافية والإعلامية لتقديم الوجه الحضاري لبلادنا وتعريف الشعوب الأخرى بالصورة الحقيقية لأبناء أمتنا.

\*\*\*

لا شك أن البطالة التي وصلت إلى أرقام قياسية تمثل الآن أكبر العلل الاقتصادية التي أصابت معظم البلاد الغربية. ولذلك فقد صارت هذه المشكلة هماً أساسياً لكل حكومة من حكومات هذه الدول. وقضية رئيسية تبارى الأحزاب في وضع البرامج للتغلب عليها. وبرغم خطورة هذه الظاهرة التي فشلت كل برامج الإصلاح الاقتصادي في علاجها وبرغم ما يترتب عليها من آثار سلبية على المجتمع مثل ارتفاع معدلات الجريمة في عواصم الغرب الكبرى، فإن ما يقوله بعض المعلقين السياسيين بإذاعتنا وصحافتنا من أنها علامة انهيار وتدهور هذه المجتمعات قول مبالغ فيه، ولا بد من فهم هذه المجتمعات فهماً صحيحاً حتى نستطيع التعامل معها من موقع المعرفة والتحليل وليس من موقع المبالغة وخداع الذات، لأن هذه

البطالة فى حقيقتها إنما هى إحدى المشاكل الناتجة عن النمو والتقدم، ويجب أن نأخذ فى الحسبان أيضاً أن هؤلاء العاطلين إنما هم مجموع القوى المؤهلة للعمل من نساء ورجال، وليسوا رجالاً فقط كما يذهب فى أذهاننا عندما نقيسهم بمقاييس المجتمعات التى تنتسب إليها وماتزال تعانى من امتناع مايقرب من نصف قواها المنتجة عن العمل بسبب الأوضاع المتخلفة التى تعيشها المرأة، وهى حسبة قد تجعلنا نظهر أكثر ابتلاءً بالبطالة من هذه المجتمعات.

ومن ناحية أخرى فإن هذه البطالة لم تكن بسبب الكساد الاقتصادى كما كان يحدث فى مراحل سابقة، ولم تكن على حساب انخفاض نسبة الإنتاج، إنما جاءت نتيجة لهذه الثورة العلمية فى مجال العقل الآلى والتوسع فى استخدامه توسعاً هائلاً إلى درجة أن بعض المؤسسات تدفع مبالغ طائلة للعمال الذين تم تسريحهم توازى ما كانت ستدفعه لهم لو استمرت فى استخدامهم وذلك مقابل أن تسمح لها الاتحادات بإدخال العقل الآلى كبديل لهؤلاء العمال، كما حدث مع بعض المؤسسات الصحفية الشهيرة فى بريطانيا.

وبرغم أن هؤلاء العمال يتقاضون منحةً من الدولة أو منحةً من المؤسسات التى استغنت عن خدماتهم كما يتمتعون بمجانبة التعليم والعلاج وتسهيلات أخرى فى السكن والخدمات العامة إلا أن وجودهم دون عمل يشكل قضية أساسية من القضايا التى يدور حولها النقاش وتجعلها البرامج الانتخابية محورياً للأحزاب المتنافسة على السلطة.

لأن هذا العامل أو المهندس أو الموظف الإدارى الذى انضم إلى طوابير العاطلين لا يريد أن يكتفى بالحد الأدنى من المعيشة الذى تؤمنه له الدولة وإنما يريد عملاً يسمى من خلاله لتطوير مستواه المعيشى وإثبات مهاراته

والارتفاع بها وتحقيق وجوده الفاعل فى الحياة لامجرد مواطن زائد عن الحاجة عرضة لشتى الأمراض النفسية والعصبية.

إن استيعاب هؤلاء العاطلين فى دورة العمل والمشاركة والإنتاج إنما تملية ضرورة إنسانية قبل أن تملية ضرورة اقتصادية لأن اقتصاد هذه البلاد لا يشكو أى ضعف بل هم يكثرون من الحديث عما يسمونه «المعجزة الاقتصادية» كوصف للحالة التى وصل إليها اقتصادهم.

وخلاصة القول : إننا نشغل أنفسنا كثيراً بمشاكل المجتمعات الأخرى ونبالغ فى تجسيمها ونحاول أن نحقق من ذلك تعويضاً نفسياً يبرر ما نحس به من قصور نحوها. إن أهم ما حققه الغرب هو أنه لا يرمى بمشاكله تحت البساط ويدعى أنه لا يراها كما نفعل نحن، وإنما يضع كل قضاياها فوق مناضد الفحص والتشريح ويبحث عن علاج لها. وقد آن لنا أن نتعلم منه هذا الدرس.

\*\*\*

هناك قول ساخر يقول إن «المبادئ مكانها المعارضة» ومعنى ذلك أن هذا المعارض الذى عاش يرفع أبهى الشعارات ويطالب بتطبيق أكثر المبادئ شرفاً ونبلاً ويظلم أحلام الجماهير أقوالاً جميلة عن العدل والحرية والإخاء والمساواة، يمنيها بالأمن والعزة والرفاء إذا وصل - إلى الحكم، ما أن يحقق غرضه فى اعتلاء سدة الحكم ويبدأ فى التعامل مع معطيات الواقع حتى يكشف أن المثل والمبادئ شىء آخر غير الواقع وحقائقه العارية من الوهم والخيال، وسوف ينشغل بمواجهة المشاكل التى يفرزها واقع الحكم والبحث عن أفكار عملية يضمن بها علاجاً لهذه المشاكل حتى لو اختلفت هذه الأفكار وهذه الحلول عن تلك المبادئ والشعارات التى كان ينادى بها وهو خارج دائرة الحكم.

وبرغم ما فى هذا القول من مبالغة تصل إلى حد السخرية المريرة فهو أيضاً بجسد حقيقة كثيراً ما نراها ماثلة أمام أعيننا، ولا أذكر الآن من هو ذلك الثائر الذى أبدى أسفه وحزنه لأنه ما أن تحقق حلم الجماهير بوصوله إلى السلطة حتى وجد نفسه يشرع أول ما يشرع فى إنشاء جهاز للمخابرات يكون رقيباً على هذه الجماهير.

وما أكثر ما تعلقت أبصارنا بحكام يأتون إلى الحكم بأفكار جديدة جريئة وأهداف نبيلة عظيمة فنمنحهم حبنا وتأييدنا وما أن تمضى بضعة سنوات، إن لم تكن بضعة أشهر حتى نكتشف أنهم أكثر بؤساً ووبالاً علينا من الحكام الذين سبقوهم، وليست الثورة الإيرانية إلا مثلاً على هذه الخيبة التى نحصدها مع كل تغيير يطرأ على الحكم.

وبرغم مضى مئات الأعوام على ظهور الأفكار الميكافيلية فقد ظل كتابا الأمير والمطارحات هما دستور الحياة السياسية فى عالمنا بما فى ذلك بلدان العالم المتقدم حين تعاملها مع شعوبنا وقضايانا.

فنحن نتابع بقلوب خائفة الانتخابات الفرنسية أو البريطانية أو الأمريكية أو التغييرات التى تطرأ على الحكم فى روسيا أو فى الصين بأمل أن نرى شيئاً جديداً يبنى بتحول ينال هذه السياسات المجحفة فى حقنا ويفتح أفقاً جديدة ويتيح شيئاً من الإنصاف تجاه قضايانا، فإذا بهذا الذى يأتى سواء كان اشتراكياً أو ليبرالياً، يسارياً أو يمينياً يعامل قضايانا بالأسلوب ذاته ويستخدم المسطرة ذاتها التى استخدمها أسلافه إن لم يزد شططاً فى معاملتنا واستهتاراً بقضايانا ورغبة فى إلحاق الأذى بشعوبنا.

ولقد وجدت أن أفضل وسيلة لمعالجة حالات الإحباط التى تصيبنى نتيجة متابعتى لما يجرى من تغيير فى البلدان الكبيرة أن أصرف النظر عنها، وأنسى كل ما يحدث بها من تغيير، وأدير وجهى صوب بلدان أخرى

صغيرة وفقيرة هي التي صرت أبحث عنها فوق الخريطة وأختار أصغرها حجماً وأضعفها شأناً في الحسابات الدولية مثل تلك النقاط الطافحة فوق مياه البحار والمحيطات بدءاً من برمودا إلى سيشيل، لأن متابعة أخبارها تمنحني راحة أكبر وشعوراً أعظم بالسلامة والأمان. فأعرف أنه مهما كان حجم التغيير فيها كبيراً لن يستطيع أن ينالتي أو ينال القضايا التي تخصني بأى ضرر أو أذى. ووجدت في ذلك وسيلة تنجيني من مشاعر الإحباط والحيرة حين أتابع أخبار الدول الكبيرة.

وبطبيعة الحال فإن القول الذي يحكم بالنفي على المبادئ لكي تبقى دائماً خارج الحكم، لن يرغمنا على اعتبار كل المعارضين مستبدين تحت التمرين، أو اعتبار كل الحاكمين مهما أفسدوا أفضل حالاً من معارضيهم، فالصورة تحتمل درجات لونية كثيرة غير الأبيض والأسود، ولكن الإنسان يطمح إلى أن يرى شيئاً يناقض هذا القول ويرمى به إلى سلة المهملات، يطمح إلى أن يرى عالماً حقق هذا التوازن بين الواقع والمثال. إن عالمنا الذي صار قرية صغيرة بفضل الثورة العلمية في مجال الاتصالات والمواصلات لم يعد يحتمل أساليب المغامرين الذين يتاجرون بالشعارات، ويعبثون بمقدرات الشعوب، لأن الخطر الذي يحق بمكان ما من العالم، صار بإمكانه أن يهدد السلام في العالم كله، والمشكلة الصغيرة التي تنفجر في بقعة بأقصى أركان الكرة الأرضية، بإمكانها أن تصبح مشكلة كل شعوب العالم. ولذلك فإن العودة إلى الاحتكام للمبادئ والارتفاع بأساليب الحكم إلى مستوى المسؤولية الأخلاقية التي تتفق مع ما حققناه من تطور في مجالات العلوم والمعارف الإنسانية ستكون سبيلنا الوحيد إلى النجاة من الكارثة.



دأب الأطباء على إضافة جملة يقولونها لك بتجهم وخطورة  
بعد الانتهاء من كتابة الوصفة الطبية هي:

- «وما عليك الآن إلا أن تتعد عن كل ما يسبب لك الانفعال والتوتر».  
وهم لا يقولونها لك عندما تأتى لشكو أرقاً أو قلقاً أو كآبة أو مرضاً من  
أمراض النفس فقط، وإنما يقولونها حتى وأنت تأتى باحثاً عن دواء لمرض  
عضوى كالصداع أو اضطراب المعدة أو تشكو ألماً فى الأنف أو الأذن أو  
العينين أو الأسنان أو الخنجر، فهى جملة صارت لازمة لأى زيارة طبية.  
- ابتعد عن الانفعال والتوتر!

يقولها لك الواحد منهم وكأنها مهمة سهلة ويسيرة ولا تقتضى سوى أن  
تقرر شيئاً مثل هذا فيتحقق فى التو والحين. أو بإمكانك أن تصدر أمراً إلى  
جميع مذيعى نشرات الأخبار بأن يمتنعوا عن ذكر الأخبار المزعجة أثناء  
سماعك للمذيع أو وجودك أمام جهاز التلفاز وأن تصدر أمراً لكل  
الشوارع التى تعبرها من بيتك إلى عملك بأن تعلق الزينات وتقيم الأفراح  
والاحتفالات حين مرورك بها حتى يختفى من طريقك كل ما كنت تقابله  
من معارك ومشاكل وأكداس من القمامة والذوق الفاسد تسبب لك الضيق  
والإزعاج. وأن تصدر أمراً لكل السيارات والدراجات النارية بأن تمتنع عن  
المرور بالأحياء القريبة من بيتك لكى لاتشير بضجيجها أعصابك وتمنع عنك  
النوم، وأن تصدر أمراً آخر إلى جيرانك بأن يتخلصوا من أطفالهم  
وصبيانهم الذين يملأون الشارع صخباً وعنفاً.

ولعل هذا الطبيب يريدك أن تربط عصابة على عينيك، فلا ترى شيئاً  
وأن تضع صمغاً أو طيناً فى أذنيك، فلا تسمع شيئاً وأن تضع قيداً فى  
قدميك يمنعك من الحركة والتجوال لكى لاتصطدم بكتل الزحام أو تكون  
طرفاً فى «المارثوان» الذى يقيمه الناس صباح مساء، وأن تبحث عن غرفة

فوق سطح البيت تحيطها بعوازل الصوت وتقلل أبوابها وشبابيكها وتبقى مقيماً بها مدى العمر، فهذا هو السبيل الوحيد الذى ينجيك من التوتر والانفعال، أما إذا أردت أن تكون جزءاً من الحياة تذهب كعباد الله الآخرين إلى العمل وتقابل الناس وتجالسهم وتسمع وتقرأ وتشاهد ما يسمعونه ويقرأونه ويشاهدونه فإنه لاجتابة لك من التوتر والانفعال حتى لو أقمت فى أبعد القرى عن الحضارة والعمران، أو حتى لو كنت تنتمى لأكثر شعوب العالم استقراراً وأمناً وسلاماً، فما بالك إذا كان هذا الطبيب يعرف أنك مواطن عربرى وأن الله قد اختبرك بمحنة المجيء إلى الدنيا فى هذه المرحلة التى لم ينصفها جميع الكتاب الذين أطلقوا عليها نعوت : الخطيرة، والعصية، والحرجة لأنها أشد هولاً وبؤساً من كل الأوصاف والنعوت.

إن حديث الطبيب فى مثل هذه الحالة يصبح ضرباً من العيب والهديان، ولا سبيل إلى التفاهم معه إلا بأساليب الأحاجى الشعبية. وما أن تسمعه يقول:

- ابتعد عن التوتر والانفعال. حتى تبادره قائلاً:

- ابتعد أنت عنهما، وسوف أهديك مدينة لو أفلحت !!

\*\*\*

الذين يتعرفون من قريب على مظاهر الحياة الاجتماعية فى بريطانيا سوف يشعرون بالأسف والأسى لما أحقه التفكك العائلى من ضرر بالطاعنين فى السن من رجال ونساء ممن يواجهون صقيع الشيخوخة فى فراغ وعزلة بعد أن تمزقت الوشائج التى تربطهم بالأهل والأبناء.

وبرغم هذا الجفاف فى العلاقات العائلية فإن هناك تقليداً جميلاً حافظ عليه سكان الجزر البريطانية وهو الاحتفال بكل إنسان بلغ عمره مائة عام من مواطنيهم. تتولى السلطات المحلية إقامة حفل لصاحب العيد المثوى،

وتسولي ملكة بريطانيا رعاية الحفل بإرسال خطاب إلى المحتفى به أو مندوب لحضور الاحتفال ويدعى المواطنون للمشاركة في هذا التكريم وتقديم التهئة والهدايا لهذه المرأة أو لهذا الرجل الذي عاش قرناً كاملاً من الزمان. ولعل هذا التكريم يأتي تعويضاً عن أوجه التقصير والإهمال التي يلاقيها الطاعنون في السن من فئات المجتمع الأخرى، ولكن يبقى مع ذلك تقليداً جميلاً يؤكد عدداً من المعاني الإنسانية التي تحض على احترام الكبار وتسعى لوصل الروابط بين الأجيال وتعيد الاعتبار لقيم الوفاء التي صارت تضع في زحام هموم ومشاكل الحياة. ولاشك أن هناك بلاداً كثيرة أخرى تعتمد هذا التقليد وتعبّر بشكل أو بآخر عن تكريمها الشعبي والرسمي لمثل هؤلاء المواطنين الذين بلغوا هذا العمر، إنها رسالة تقدير وامتنان تبعث بها الأجيال الجديدة إلى هذه الرموز التي تسقت من أجيال وأزمان توارت وانتهت.

وبرغم أن تقدير الصغير للكبير يمثل أحد الأعمدة الأساسية في ثقافتنا وتربيتنا العربية الإسلامية فإنني لم أسمع أو أقرأ شيئاً عن مثل هذا التكريم يحدث في بلادنا العربية، ربما لأننا اكتفينا بدفء العلاقات العائلية وما توفره لهؤلاء الشيوخ من عطف وبر ورحمة عن التكريم الرسمي. وربما لأن قضايا التحول والبناء وهموم التنمية واللاحاق بركب العالم المتقدم قد شغلت أجهزتنا الرسمية عن الالتفات لمثل هذه الجوانب الإنسانية الصغيرة، ومع ذلك فإنني أعتقد أن تكريماً يتجاوز احتفاء الأهل والأقارب ليجعل من هؤلاء الشيوخ محل اهتمام المجتمع بهيئاته الشعبية والرسمية سيكون تأكيداً لهذه القيم التابعة من تراثنا وتعزيزاً لروح التوادد والمحبة التي تربط بين أبناء مجتمعتنا. إن هذا الاحتفال بقدر ما هو احتفال بتواصل الأجيال وتتابع الرسالة التي يسلمها جيل إلى جيل فهو احتفال بالحياة ونبضها المتجدد،

احتفال بالإنسان في كدحه وعنائه وجدته واجتهاده، إن هذا الإنسان الذي امتد به العمر حتى وصل مائة عام، عايش مختلف الأحداث والخطوب وحقق انتصاره على المشاكل والهموم والفواجع التي تعصف بحياة البشر إلى أن وصل هذه السن وقطع هذا الشوط وصمد في الماراثون الإنساني حتى بلغ هذا الرقم القياسي الذي قدره مائة عام. إن من يصل إلى هذه السن في وقتنا هذا معناه أنه عايش حربين عالميتين عصفتا بالمجتمع الإنساني كله واجتاز ما رافقهما من محن وكوارث اقتصادية وطبيعية وما جاء بعدهما من فتن وحروب صغيرة، فالاحتفال به احتفال بانتصار الحياة على كل عوامل الموت والعقم والفساد. إنه احتفال يشمل كل أولئك الآباء والأجداد الذين عمروا لنا هذه الديار وأشادوا بيوتاً نسكنها وأشجاراً نأكل من ثمارها وحرروا البلاد من غزاة كانوا يستعمرون أرضها، فوجب الاعتراف بفضلهم وتكريمهم من خلال هؤلاء الرجال والنساء الذين تخلفوا قليلاً عن ركبهم وبقوا لحظات في صحبتنا بعد أن رحل ذلك العالم الذي يتمون إليه.



كلما زرت إحدى المدن الكبيرة التي تزدهر بتقدمها وتطور اقتصادها وصلابة بنيتها الاجتماعية التي ضمنت لأهلها الأمن والرخاء، أثارني ذلك المشهد الذي نلتقي به منذ أول يوم لوصولنا والذي نراه عند ذهابنا عبر الأنفاق إلى محطات القطر، أو عند مرورنا بالشوارع الخلفية التي تضربها الأمطار والرياح ملازماً لأبواب الحوانيت والحانات، مشهد نساء ورجال بعضهم في مستقبل العمر، يتكومون فوق الأرض وتحت الأقواس يلتحفون بأوراق الصحف القديمة وتفوح منهم رائحة البؤس والشقاء وقد تحولوا إلى حطام بشري.

مشهد برغم أننى أراه عاماً وراء عام إلا أنه ظل مصدراً للحيرة والدهشة يشير فى الذهن شتى التساؤلات. إذ من السهل أن تجد تفسيراً لمثل هذا المشهد لو أنك التقيت به فى كالكاتا أو بومباى أو كامبالا أو إحدى مدن الفقر والمجاعات والحروب الأهلية، أما أن تلتقى به فى عواصم العالم والثراء التى تفخر أنظمتها الاجتماعية والسياسية المتطورة بأنها تجدد الإنسان وتصور كرامته وتقدس حرته وحقوقه، فإن الأمر سيظل مصدراً للدهشة والاستغراب.

وهو ليس مشهداً نادراً نلتقى به مرة ولانلتقى به مرة أخرى فهو يقابلك فى كل مكان تذهب إليه ليؤكد أن عدد هؤلاء الناس الذين أضحوا حظاً بشرياً يبلغ رقماً كبيراً ويشكل ظاهرة تلفت نظر كل إنسان. وهم ليسوا من أتباع الدعاوى الفلسفية التى صنعت «الكولوشار» فى فرنسا وصنعت فى بقية الدول الغربية تقليعات «الهيبيين» أو «البانكس» أو «أبناء الطبيعة» أو غيرهم من المتمردين الذين ينفرون من الطقوس الرسمية ويعيشون بعيداً عن الارتباطات الوظيفية العائلية ويمتنعون عن العمل بالمؤسسات التقليدية التى يعتبرونها مسخاً لشخصية الإنسان، فتلک الدعاوى يمكن فهمها كما يمكن فهم أتباعها وأتباع دعاوى أخرى تشبهها وإن اتخذت منحى دينياً مثل أتباع «كربشنا» وأتباع «مونى» فهؤلاء حتى وإن مارسوا اختياراً يختلف عن اختيارات المجتمع الذى ينتمون إليه يتدبرون لأنفسهم عملاً بإحدى المزارع أو المنتجعات ويحتفظون بمستوى معيشى لا يفقدهم كرامتهم. إن حالهم يختلف عن حال هذه الأكوام من العظام التى انسلخت انسلاخاً كاملاً عن الحياة التى تليق بالبشر. فهل هؤلاء أيضاً يمارسون اختياراً حراً يعشق الموت برداً تحت الأنفاق والقناطر؟

إن ما يبطل هذا القول هو أن جميع هذه الكائنات التى كانت رجالاً

ونساء، تعاني من أمراض الإدمان، ولا أدري كيف يجدون وسيلة للحصول على الكحول أو المخدرات التي يدمنونها. إنهم يلتقطون قرشاً من هنا وقرشاً من هناك يضمن لهم سمّاً رخيصاً يدمرون به أنفسهم. فهم إذن كائنات مريضة لحق نفوسها عطب وتشويه لاشفاء منه. إنهم ضحايا خطأ فى النسيج الاجتماعى الذى صنع شبكة معقدة من العلاقات ضمنت الأمن والرخاء لأغلبية الناس ورمت جانباً ببعض الزائدين عن الحاجة. إن هؤلاء البؤساء الذين نراهم يلتحفون الصحف فى ليالى الشتاء ليسوا إلا الرأس الطافح من جبل الجليد الأسود المدفون تحت الماء. فلا شك أن البؤس الأسود يطال أناساً آخرين لانراهم ولكننا نسمع بأخبارهم عندما يموتون برداً فى ديارهم نتيجة افتقارهم إلى مبلغ يشترون به وقوداً، وهو يدل على أن هذه المجتمعات برغم ما حققته من تطور ونماء وما تتمتع به من خير ورخاء ماتزال تعاني خلاً فى تكوينها وبنيتها، وإن الثوب الذى يبدو زاهياً وبراقاً يخفى تحت بريقه ولمعانه الكثير من الثقوب ويقع الوحل السوداء.



الذى جاء زائراً إلى مدينة غربية مثل العاصمة البريطانية أثناء أزمة الخليج، لا شك أنه فوجئ بحجم الاهتمام الذى كان يمنحه لها الرأى العام، فأحداث الأزمة وأحاديثها كانت تهيمن على حياة جميع الناس، وتحتل الجزء الأكبر من الوقت المخصص للأخبار والبرامج السياسية فى الإذاعات المرئية والمسموعة، وتتملأ أعمدة الصحف والمجلات، بل إن هذه الأحداث صارت محوراً أساسياً من محاور الأحاديث الخاصة فى البيوت والشوارع والمنتديات، وكان هؤلاء الناس معنيون بالقضية مثلهم مثل أهل المنطقة الذين يعيشون فى قلب الأحداث. ولم أجا إلى القراءة التأمرية التى تفسر هذا الاهتمام بأنه جزء من خطة مرسومة لتأليب الرأى العام ضدنا، لأن هذا

المواطن البسيط الذى نلتقى به عاملاً بأحد الفنادق أو سائقاً لسيارة أجرة أو متسكعاً يستمع إلى خطباء الحدائق، ليس بالتأكيد شريكاً فيما يدور وراء كواليس الحكم، أو ضالماً فى التآمر على شعوب العالم الأخرى، حتى إذا كان اهتمامه جاء نتيجة الضجة التى يثيرها من حوله السياسيون والإعلاميون، فإن هؤلاء السياسيين والإعلاميين أنفسهم، تتنوع آراؤهم وأفكارهم ومواقفهم من الأزمة بحسب تنوع توجهاتهم السياسية ومنطلقاتهم الفكرية، وانتماءاتهم الحزبية، ولذلك فإن لهذا المواطن أسبابه التى تجعله ينفعل ويتأثر ويراقب تطورات الأزمة يوماً بيوم، فهى أسباب تنصل بحياته وأمنه ورفقه، كما تنصل بأمن وسلامة العالم الذى يعيش فيه.

لقد رأى الناس نظاماً دولياً جديداً يولد هذه الأيام ويشر بالانفراج فى العلاقات الدولية، والمعالجة السلمية للقضايا الخلافية، ونزع فتيل الحرب التى ستكون حرباً كونية، وتصفية نقاط التوتر ومصادر الخطر، وذلك بعد سنوات من الوقوف على حافة الهاوية نتيجة الصراع بين القوتين الأعظم.

لقد اختفت لغة الحرب لتحل مكانها لغة الحوار ونزع السلاح وتدمير مخازن الشر من أسلحة جراثومية وكيميائية وذرية، ولكن أزمة الخليج جاءت بأحداثها العنيفة تعيد إلينا لغة الصراع المسلح واستخدام القوة فى تسوية النزاعات.

وفى أوج تلك الأزمة التى هددت الوطن العربى بمزيد من الانقسام والتمزق والحروب، كانت شاشات التلفاز تنقل مظاهر البهجة التى تغمر شوارع برلين ليلة الاحتفال بميلاد ألمانيا الموحدة، وظهور هذا العملاق السياسى والاقتصادى الجديد، مستفيداً من جو الانفراج الذى صار يحكم العلاقة بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى. لقد جاء هذا النظام الدولى الجديد، يحمل حقائق جديدة كان بإمكانها أن تعطل دور الكيان الصهيونى

باعتباره كلب حراسة وقاعدة متقدمة على الحزام الذى يفصل بين معسكرى الشرق والغرب، وكان بإمكان البلاد العربية أن تسعى لتوظيف هذا النظام الدولى من أجل تحقيق تضامنها ووحدة صفوفها وخروجها إلى العالم قوة كبرى تعزز مسيرة السلام وتسهم فى البناء الحضارى وتباشر دورها الفاعل فوق الخارطة السياسية لعالمنا، كما حدث فى البلاد الألمانية وبلاد أخرى فى طريقها إلى الاستفادة من هذه الفرصة التاريخية، ولكننا للأسف الشديد لانحيد قراءة التاريخ ولاندرك الإمكانيات المتاحة إلا بعد ضياعها.

إن العالم لم يكن ليهتم كل هذا الاهتمام بما يحدث فى بلادنا، والمواطن البسيط فى شمال العالم وجنوبه، وشرقه وغربه، لم يكن ليجعل من هذه الاحداث قوتاً يومياً لسمعه وبصره وعقله وقلبه، إلا لأنه يدرك مدى أهمية بلادنا وقيمة موقعها ومواردها وإمكانياتها، فمتى نعرف قيمة أنفسنا؟

\*\*\*

مهما تعددت زياراتك إلى مدينة ما أو منطقة من مناطق الدنيا، فإنه يبقى للزيارة الأولى، والانطباع الأول، أثر فى الذاكرة لا يمحي، وسيظل هذا الانطباع الأول يلون نظرتك إلى ذلك المكان حتى بعد أن تكتمل معرفتك به وتتوثق صلته بأمله وتتعمق خبرتك بجوانب الحياة فيه.

وقد ترتبط زيارتك الأولى بذكرى حقيبة ضائعة، أو عبارة جارحة قالها دركى عصبى المزاج وسقطت فى أذنك فإذا بتلك الذكرى تنشر غشاوة فوق عينيك تحجب عنك الكثير من جوانب البهجة والجمال.

وقد يمضى زمن طويل قبل أن تزول تلك الغشاوة وتهتدى إلى جمال ذلك المكان.

وما أكثر ما نلتقى فى مكان واحد باثنين من أصحابنا فإذا بأحدهما يقول فى معرض الحديث عن مدينة روما مثلاً، بأنه كلما ازداد معرفة بها ازداد

نفوراً منها، بينما يؤكد الصديق الثاني بأنه كلما جباه الحظ بزيارتها ازداد عشقاً لها. وتتساءل عن سبب هذا التباين في وجهات النظر وتبحث عما إذا كان ذلك يعكس تبايناً في المستويات الثقافية أو الجذور التربوية أو أنه جاء نتيجة لاختلاف الميول والهوايات ومجالات العمل، ولكنك تعرف أنهما ينتميان إلى مدينة واحدة، وأنهما أبناء مناهج دراسية واحدة، ومستوى معيشي واحد وعمر متقارب ومجالات عمل متشابهة، وكلاهما يقرأ قصص مورافيا، ويشاهد أفلام فلليني ويحب فطائر البيتزا ويعشق ابتسامه كلوديا كاردينالي. وتكتشف أن السبب في هذا التباين أو التنافر في وجهات النظر يعود إلى أحداث صغيرة أثناء الزيارة الأولى أسهمت في تكوين ذلك الانطباع الأساسي الذي ظل يعيد إنتاج نفسه في ذاكرة كل منهما.

قد لا يصدق هذا القول على كل الناس وقد لا يتطابق مع كل الحالات، ولكنه صدق معي في مناسبات كثيرة وجدت فيها نفسى أسير النظرة الأولى لأماكن تكررت زيارتي لها وتعمقت خبرتي بأساليب الحياة فيها، وخالصة القول أن الأشياء تتلون بلون رؤانا وتكتسب صورتها مما نضيفه نحن عليها، إنها كثيراً ما تكون مرآيا تعكس ما في نفوسنا وأن القبح والجمال قبل أن نلتقى بهما في الطبيعة فهما في عقل الإنسان الذي بإمكانه إذا شاء أن يحيل الجمال قبحاً ويحيل القبح جمالاً وقديماً قالوا: كن جميلاً



تري ماذا سيكون شعورك عندما تتلقى بطاقة من بطاقات الأفراح تدعوك لحضور حفل طلاق يقيمه صديق لك وزوجته؟  
هذا ما يمكن أن يحدث لك لو كنت مواطناً من مواطني مدينة

برمنجهام ببريطانيا حيث تبدأ الآن هذه التقليدية الجديدة التي تدعو إليها امرأة مطلقة صنعت لنفسها اسماً تناقله أعمدة الحوادث الاجتماعية فى الصحف البريطانية، هى شيلا ديفنر.

لقد تضاءلت هيمنة التقاليد القديمة، التي كانت تحكم العلاقات الاجتماعية وتضع الطلاق فى قائمة المحظورات التي لا يباح الاقتراب منها إلا عند الضرورة القصوى، ولحق التغيير قوانين الأحوال الشخصية التي ظلت تعكس وتواكب ما عرفته المجتمعات الغربية من تحولات وانقلابات اجتماعية، كما تغيرت النظرة الدينية المتزمتة التي كانت سائدة لعصور طويلة برغم أن أثرها مازال سارياً فى طقوس الزواج الذي يتم فى الكنيسة حيث مازال العروسان يتبادلان الموائيق والعهود على الوفاء والإخلاص واحترام الرابطة التي تجمع بينهما فى السراء والضراء «حتى يفرق بينهما الموت»، وخاضت جمعيات الحقوق المدنية معارك كثيرة ضد مؤسسات سياسية ودينية تتولى حراسة التقاليد القديمة حتى تحقق لهذه الجمعيات ما أرادت بشأن تسهيل إجراءات الطلاق وكسبت معاركها الأخيرة فى روما نفسها حيث دولة الفاتيكان وسطوة التقاليد الكاثوليكية التي تعتبر الطلاق من المحرمات.

وبرغم حرية الاختيار التي صار يتيحها المجتمع فى العقود الأخيرة، مقارنة بالمراحل القديمة بما فيها العصر الفيكتوري الذي امتد تأثيره فى بريطانيا إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة والذي كان متزماً يحد الطريقة التقليدية فى الزواج حيث تعقد أواصر المصاهرة داخل الطبقة الاجتماعية الواحدة، وحيث فرص الاختيار أقل مما هى عليه الآن، أقول برغم الظروف الجديدة التي تتيح الاختيار وبناء الأسرة على أسس أكثر متانة فإن الطلاق لم يكن أكثر شيوعاً مما هو عليه الآن.

ولاشك أن بعض أسباب الطلاق يتصل بالشويرة التي تحققت على مستوى تنظيم الأسرة وتحديد النسل، فكثير من الأزواج في الغرب يجعلون من السنوات الأولى للزواج سنوات اختيار وتجربة يمتنعون فيها عن إنجاب الأطفال، وعندما يفكرون في فك هذا الارتباط يفكونه دون تحمل مسؤوليات كبيرة.

وطالما أن هذا الزواج الذي انتهى الآن إلى طلاق، قد بدأ بالموسيقى والرقص والغناء فلماذا ينتهي بالدموع والبكاء، لماذا لا ينتهي كما بدأ بطريقة حضارية وحفل يدعى إليه الأصدقاء؟

\*\*\*

ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن السيجارة شيء قادر على القتل. هذه اللقافة الصغيرة البيضاء ذات المظهر الواثق البريء التي بدأ بعضنا تدخينها منذ أيام المراهقة نسليّة، ولعباً، ومحاكاة للرجال الكبار، صار العلم يكتشف لها من جوانب الشر ما يوازى الآفات الأخرى التي تؤدي بضحايها إلى الإدمان والهلوسة وأمراض العقل.

إن الخطر الذي تمثله السيجارة صار الآن هاجساً يسيطر على كثير من أجهزة التوعية والإرشاد في المجتمعات الغربية إلى حد أن الحكومات لم تعد تكتفى بوضع التحذير المعروف الذي يشير إلى أمراض التدخين وإنما صار هذا التحذير أكثر صراحة وتحديداً فهو يقول بلهجة خالية من التزيق بأن التدخين سبب أساسي للإصابة بسرطان الرئة والذبحة الصدرية، وسيضيفون إلى هذا التحذير اكتشافاً طبياً جديداً يقول بأن التدخين سبب من أسباب الجلطة التي تصيب أوعية الرأس.

وأنا لا أقول هذا الكلام استفزازاً للقارئ الذي قد تكون قراءة الصحيفة مع سيجارة وفنجان قهوة أو شاي طقساً من الطقوس التي يبدأ بها يومه،

فقد كانت هذه عادتي التي لم أكن أتصور أنني أستطيع أن أتخلى عنها تحت أي تهديد، ولذلك فإنني أقول هذا الكلام استفزاً لثغري باعتباري واحداً من ضحايا هذه المخلوقة الصغيرة الماكرة القائلة التي ترتدى ثوبها الأبيض وتحط بين أصابعي وكأنها ملاك هابط من السماء.

لقد حاولت وبعد أكثر من عشرين عاماً أن أقاوم سحرها وأنخلص من شباكها وأفك ارتباطي بها، وبرغم نجاحي في الإقلاع عنها فقد ظللت دائم الحنين إليها أكسر صيامي عن تدخينها مرة أو مرتين كل أسبوع لأرتشف رحيقها في حرج وخوف ولهفة وكأنني عاشق يتسلل تحت جناح الظلام للملاقة حبيته.

لقد وعت بعض المجتمعات خطورة هذه الآفة فأدارت الحملات الضارية ضدها وسعت لتحذير الناس من أهوالها، وأعلنت منظمة الصحة العالمية حربها ضد التدخين باعتباره يمثل تهديداً لحياة الإنسان ولكن السيجارة ستظل برغم ذلك كله تبسط نفوذها على حياتنا وتطيح بضحاياها من أبناء جنسنا ليس فقط لأنها ذات مظهر ساحر جذاب يخفى طبيعتها القاتلة ولكن لأنها أصبحت صناعة ضخمة يتوقف على استمرارها في الوجود استمرار آلاف المؤسسات المالية التي تحكم عالمنا.

إن السيجارة مثلها مثل أسلحة الفتك والدمار جزء من هذه الحلقة الشريرة التي تبدأ بإنسان يريد تحقيق مصلحته بأيذاء وتدمير إنسان آخر، ناسياً أنه عندما يفعل ذلك إنما يشارك في إيذاء وتدمير نفسه أيضاً.



يسمونه في الأوساط الأكاديمية الطالب الأبدى.

وهو نوع من البشر يرفض أن يغادر فصول الدراسة إلى العالم المفتوح حيث يشتد الصراع بين الناس الذين يتزاحمون على أبواب العمل

ويتنافسون على تحقيق النجاح ويباشرون من خلال ذلك الصراع والتنافس والتراحم مهمات الإنتاج والبناء.

ولابد لمن ينتسب لجامعات الغرب أن يلتقى بمثل هؤلاء الطلاب الأبديين من أبناء البلاد. إن الواحد منهم غالباً ما يعيش حياة بائسة ومع ذلك فهو يحبها ولا يرغب عنها بديلاً، إنه نوع من الاختيار يجعله يتحمل المتاعب مقابل الابتعاد عن مسؤوليات الحياة، ولكي يتيح لنفسه البقاء دون إزعاج أو تصادم مع قرارات الجامعة لأكبر عدد من السنين فهو يسجل نفسه طالباً غير متفرغ لتحضير رسالة الدكتوراه، وهو إن لم يستطع أن يعيش على دخل أمه التي تعمل شرطية مرور أو على مشاركتها في معاشها التقاعدي إذا وصلت سن التقاعد، تفتن في الحصول على منح من بعض المؤسسات التي ترعى أمثاله من الطلبة البائسين، وتنتهي سنوات المنحة فيتدبر لنفسه عملاً مؤقتاً بأحد المصانع إلى أن يجد قريباً له يتبرع بمساعدة صغيرة تعينه على حياة الكفاف التي ارتضاها لنفسه، ولكن الأمر يختلف كثيراً عندما يتعلق الأمر بالطلاب العرب الذين اختاروا قضاء ما تبقى من أعمارهم طلاباً، فالبقاء طالباً لمن جاء موفداً في بعثة حكومية هو أضمن سبيل للحصول على رزق ساقه الله دون جهد أو عناء.

وأغلب هؤلاء الطلاب يتسبون إلى مدرسة أو جامعة ما، وما أن تنتهي مدتهم بها دون تحقيق نتيجة حتى ينتقلون إلى مدينة أخرى ومدرسة أخرى وتمضي السنوات ويمضي العمر لا الطالب يتوقف عن الأخذ ولا الحكومة تتوقف عن العطاء.

أغلب هؤلاء الطلاب يأتون للدراسة عامين أو ثلاثة أعوام للحصول على دبلوم أو تحضير شهادة عالية لكنهم يمضون عشرين أو ثلاثين عاماً قبل الحصول على هذا الدبلوم أو هذه الشهادة.

ولقد التقيت ذات مرة بموفد أرسلته إدارة أحد الموانئ للتدريب على طلاء المواسير لكي تقاوم رطوبة وملوحة ماء البحر وذلك لمدة عام بإحدى المدن الساحلية البريطانية، التقيت به وكان قد أمضى اثنين وعشرين عاماً في هذه البعثة، كان مازال يتقاضى راتباً شهرياً ومصاريف إضافية لشراء احتياجاته من الكتب والمراجع ويتلقى هو وأسرته علاجاً مجانيًا على حساب الدولة التي أوفدته. التقيته وهو مازال يواصل التدريب على طلاء المواسير ويجددون له البعثة عاماً بعد عام. اندهشت في البداية لغفلة الحكومة التي تصرف على عامل طلاء ما يمكن أن يبني ميناء جديداً، ثم سرعان مازال اندهاشي عندما عرفت منه أن له خالاً يشتغل خفيراً في ذات الميناء الذي أوفده في هذه البعثة، فأنا أعرف بمثل ما يعرف القراء مدى سطوة ونفوذ الخفراء في مدن وحواضر العالم العربي.

